

شهادة الصلح بين الزوجين

للكاتب الفرنسي بول بورجيه
بسم الأديب عبد الله الرباشي

نفس الوقت كانت عزائي في مهنتي .
ولا يدهشكم هذان التعبيران المتناقضان
لأنكم ستوافقوني متى انتهيت من
سرد قصتي

كان في المستشفى المتنقل الذي
كنت أعمل فيه أثناء الحرب في الريف
امرأتان هما أم وابنتها سادعوها إذا شئتم السيدة لور
والآنسة لوز؛ وكانت كل منهما مثلاً عالياً للتفاني في
العمل والنشاط والاخلاص

إن تعلق الطبيب بمساعديه هو إحدى المواقف
التي يخلقها الاشتراك في العمل، وهي عاطفة لا نجد
لها مثيلاً في المهن الأخرى، وتستمر إلى ما بعد انتهاء
العمل ممّا، ولكننا معشر الأطباء عند ما نؤوب
إلى عياداتنا لا يترك لنا مرضانا الوقت الكافي لتبادل
المكاتبات، فاني عند ما عدت إلى باريس انقطعت
عن مراسلة هاتين المرضيتين النشيطتين. وكانتا
تقطنان بإحدى مدن الجنوب حيث كان زوج
السيدة لور يتعاطى أعمال المصارف. ولكن سكوت
رجال الأعمال لا يتخذ دليلاً على النسيان، إذ أن هذا
ما شعرت به عند مارأيت ذات يوم السيدة لور تدخل
مكتبي أثناء عيادتي للمرضى فقلت لها :

— آه ! أهذه أنت في عيادتي ! أنا الذي مازال
ضميري يؤنبني منذ حضوري إلى هنا لأنني لم أجب
على خطاب واحد من خطاباتك العديدة ! يسرنى
أن أنهز الفرصة لتقديم اعتذارى لولا أنني ألاحظ
أنك جئت في طلب استشارتي ...

— لك كل المذر يا سيدي الطبيب فإن وقتك
أثمن من أن تضيقه . ومع ذلك فقد جئت أسألك

قال أحد المدعويين بمناسبة طلاق مشؤوم :
يجب الحصول على شهادة صلاحية للزواج ... فقد
عرفت فتاة كانت زهرة يانعة رطبية الفصن باهرة الجمال
لوشها زوجها بشكل مروع منذ ليلة زفافها إليه .
فقال الطبيب س ... عند ما سمع ذلك :

— لقد كثّر فعلاً حديث الناس عن هذه
الشهادة ، وثار الرأي العام ، وبدأ بعض النواب في
التفكير فيها . وفي مثل هذه الحال التي تتكلم عنها
يميل الانسان إلى الاعتقاد بأن التشريع الذي يقضى
بوجوب الحصول عليها قبل الزواج يكون تشريعاً
مفيداً . أما إذا فكر الانسان في المسألة فإنها لا تبدو
بهذه السهولة . فكّم تأثير من المشاكل ! ثم هناك
الصعوبة التي يجدها الطبيب في تسع حالات من عشر
في تشخيصها تشخيصاً علمياً أكيداً . لم يبق إلا
الحال الماثرة التي ضربت لنا مثلاً منها ، ولكن
ما العمل في التسع الأخرى ... ! وإنني لأسائل نفسي
كم من زواج موفق قد يصير امتناعه بناء على دلائل
خداعة لأعراض لن تظهر ألبتة . وكم من القلوب
الفتية المتوثبة تتمزق وتسحق بناء على قرار أساسه
نظرية قد يظهر فسادها فيما بعد ! وهذا بخلاف
الأحوال التي يستعمل فيها الفس والتزوير . اسمعوا
هذه الحادثة التي ما زالت ذكرها راسخة في ذهني
فقد كانت من الحوادث التي أثارَت حزني وألمى وفي

(*) في الأصل الفرنسي « شهادة ما قبل الزواج »
"Certificat Préuptial"

بالداء الذى تخشين فإن واجبي يعنى من أن
أبوح لك به

— أوافقك على ذلك ولكن ألا تبوح به له هو؟

— إننى لا أفهم غرضك

— إذا حتمت عليه أن يأتي إليك وأن يربى

هو نفسه بعدئذ الشهادة فهل تمت ذلك من جهتك
إخلاصاً بسر المهنة؟

— طبعاً لا . لأن من حق المريض أن يعرف

حقيقة حاله، والطبيب أن يرى إذا كانت هذه الحقيقة

تفيد أو تضر بصحة هذا المليل الذى له أن يستعمل
هذا التصريح الاستعمال الذى يلائمه

— وهل ترى ضرراً في إظهار الحقيقة للمصدر

— على العكس فهي مفيدة له إذا كان المرض

في مبدئه . وبما أنك تشكين في حالة هذا الشاب

فيفهم من ذلك أن إصابته ما زالت طفيفة . ولكن

فكرى ملياً في الأمر إذا طلبت منه أن يستشيرنى

فن المحتمل جداً أن يرفض محافظة على كرامته . ثم

إذا كانت الآنسة لويز تحبه ...

فقاطعتنى بحدة قائلة :

— إذا رفض لهذا السبب فهذا دليل على أنه

لا يحبها ، وإذا كان لذلك فيكون طبيبه قد حذره

فنصبح نحن على بينة من أمره .

ثم وقفت منعا لبدء أى اعتراض جديد وقالت

سنعود إلى بيتنا مساء اليوم . زوجى وأنا . لأننا لم

نحضر إلى باريس إلا لهذا السبب ، وغدا سأكلم

لوسيان وسأنبئك بريقة، وإذا قبل فسيكون عندك

بعد الغد ... ولكنه سيقبل ...

ودعت السيدة لور وعدت إلى مكنتى وأنا

أسائل نفسى : « هل يقبل؟ » ومع ذلك فإن موقعة

منحى بعض هذا الوقت ليس لنفسى لأننى لست
مريضة ولكن لابنتى

— هل الآنسة لويز مريضة في باريس ؟

— لا ياسيدى الطبيب ولكنها ستزوج أو على

الأقل طلبها شاب يعجبها جداً للزواج وهو شاب

نبيه وظريف للغاية عاين منذ سنة في مدينتنا مهندساً

للطرق والجسور . وقد طلبت وزوجى مهلة سنة

لتبليغه ردنا إذ تريد وضع بعض الشروط قبل

موافقتنا، لأن هذا الشاب خاض غمار الحرب بكل

شجاعة وأصابته الغازات السامة تحت أسوار

فردان . ولما كنت عرفت أثناء اشتغالى بالتمريض

ومنى شخصياً أن أكبر أضرار هذه الغازات هو

تعريض نخاعها لمطب الرئات، ولما كان والدنا لوسيان

— وهو اسم الشاب — قد توفيا بذات الصدر

فلا تقدر بل يجب ألا تزوج لويز بشاب مصدور؛

وحينئذ ...

فقاطعتها قائلاً : حينئذ خطر لكم أن تفحصوا

عن مرض هذا الشاب بواسطة طبيب

— نعم ياسيدى الطبيب . لقد عرفت فكرى

— وقد وقع اختياركم على

— هذا طبيعى فقد طالما رأينا منك العناية

بأمرنا والميل إلينا، ثم شاهدنا دقة استدلالك على

مواضع الداء

— لقد عذب عن ذهنك ياسيدتى مسؤولية

الطبيب وواجبه الصارم نحو سر المهنة . من منالم

يرئاساً كان يعالج فيه قروحاً خجولة ومعدية تزوج

فتاة طاهرة جميلة ومنمه واجبه من الكلام، بينما كان

من السهل منع حدوث هذه الجريمة بكلمة واحدة.

فإذا خصت عن داء السيد لوسيان ووجدته مصاباً

ستدركون بعد أن رأيتم انشغال فكري بها إلى هذا الحد مقدار حيرتي واضطرابي عندما تسلمت في اليوم التالي برقية من أمها هاكم نصها :
« لوسيان قد قبل . سيكون عندك غداً .
شكراً جزيلاً »

وقبل انقضاء أربع وعشرين ساعة دخل إلى مكتبي خاطب لويز . ستمعون مبلغ دهشني بعد الذي حدثتكم عن ميللي وإعجابي بهذه البنية الظريفة الرقيقة الاحساس عندما وقع نظري على الذي تحبه لدرجة التدله كما أخبرتني والدتها إذ لم ألمح فيه أي صفة أو سيماء تبرر أو تفسر مثل هذه العاطفة الجارحة . فوجهه المستدير الضخم الذي يبسم لكل شيء يدل على أنه ولد طيب ، ولكن عادي بشكل ظاهر . وقد لاحظت أنه متعجب ويخفي ما به من الاضطراب تحت ستار من المرح الذي كان طبيعياً فيه ولاشك . كنت أقرأ اضطرابه مسطراً وراء جفنيه ، ثم تبادر إلى ذهني أن شجاعته التي يدل عليها الشريط المثبت في عروته هي التي سحرت خطيبته المقبلة . وبمجرد النظر إليه يترجح أنه لا يخشى عليه من التدرن الرئوي . ثم إن الفحص الذي شرعت فيه ، وأنا أقل ما أكون رغبة في العثور على دليل يثير ريبتي أثبت لي أن نظرتي الأولى كانت صادقة فوقعت بامضائي على شهادة الصحة التامة التي حتم والد لويز عليه إحضارها . وقلت أخاطب نفسي بينما كنت أرافقه مودعاً وأنا أوشك أن أغضب من كثرة ما أبدى لي من الشكر : « وهذه أيضاً إحدى نتائج الحرب المزعنة . الاندفاع الوهمي الذي يساور الناس في الشبان الذين خاضوا غمارها ، ثم إذا عادوا إلى الحياة العامة كانوا أناساً أقل من

فردان كانت في الوقت الذي كانت تستعمل فيه غازات البثور فلم تتمعد الاصابات الرئوية ٨٠٪ . أما في سنتي ١٩١٥ و ١٩١٦ في عهد غاز الكلور فقد بلغت ٢١٪ . إذن فالأمل كبير في ألا يكون ثمة ما يحشاء هذا الشاب من النتائج الوخيمة . إلا إذا كان للوراثة تأثير ... ولكن عزة نفسه تأتي عليه أن يقبل ولو كان سليماً ... بل خعه وصا إذا كان سليماً لأنه يعرف ولاشك ما يخشون عليه منه في المستقبل ، وإرغامه على استشارة طبيب لا يعرفه اتهام له بأنه لم يستشر طبيبه الخاص قبل أن يتقدم بطلب الزواج ، وهذا بعد غشا صريحاً من جهته . لا ! إنه ان يقبل ولن أتحمّل مسؤولية ادخال الحزن على قلب لويز الظريفة . إن نظرات هذه الطفلة وطول تفرسها لدليلان على عمق مشاعرها ورقة عاطفتها . وبما أنها تحب لوسيان هذا ...

وتتمت الشاب الصغيرة في مخيلتي وأنا أردد هذه الأفكار في خاطري كأنها ما زالت أمامي في بهو المستشفى حيث كنت أعجب بها كثيراً وأنا أشاهد نشاطها ورزانتها وهي تنحني على سرير أحد مرضاي لتضميد جراحه . إن حركات وسكنات الممرضة أثناء تأدية هذه الأعمال التي تمنحها النفس أحياناً ولكن تتطلب دائماً الكثير من الدقة والعناية تكون دلائل واضحة للطبيب الذي يرتبط تفكيره بهذه الأيدي النسائية التي تتكشف له منها طبيعتها الحقيقية كاملة سترون أنني لم أخطئ عند ما عدت هذه البنية في عداد بعض النفوس النادرة التي تستولى عليها العاطفة وتأسرها وإذا ما وهبت نفسها وهبتها إلى الأبد وبدون رجى (١)

(١) الرجى والرجعة والرجوع والمرجم من رجع يرجع

واجبى فى المستشفى فى يوم الاثنين بعد تمضية الليل مسافراً فى القطار فقد اعتدت بحكم المهنة النوم فى أى ظرف وجدت فيه . وكنت أشعر برغبة شديدة تحفزنى إلى رؤية مقر أعمالى أثناء الحرب . ولما كنت دائماً ميالاً كما يقول ستاند هول إلى « معرفة كنهه الشئ على حقيقته » فقد كنت تواقاً إلى معرفة مسألة لويز بخطيبها الذى لم أكن أراه جديراً بها ، واشتدت بى الرغبة حتى أننى بدل أن أنام فى الفصر حيث أراد أصحابه أن يحجزونى طابت أن يقودونى بالسيارة بعد الاستشارة مباشرة إلى مدينة ممرضتى الطريفة النشيطة التى كانت تمد نفسها للارتباط إلى الأبد بهذا الرجل الخشن الذى أثار كراهيتى إلى هذه الدرجة فوصلت فى الساعة السادسة ومن المنزل اتصلت تليفونياً بالسيدة لور فى الحال ولحسن الحظ وجدتتها فقالت لى :

— كيف لم تبتئنى بمحضورك يا سيدى الطبيب؟ إن عملك هذا سىء بل سىء جداً ولكننى أسامحك إذا أتيت فى الساعة الثامنة لتناول العشاء مع الخطيبين وبعض الأصدقاء ؛ ولا بأس من حضورك بملابس السفر طبعاً ، غير أننى أرجوك أن تبكر قليلاً عن الموعد لأن ابنتى تشعر بالحطاط وأظن أن كثرة العمل قد أنهكتها ولذا أرغب فى أن أعرف رأبك . فقلت لنفسى : « أبدأت الغمامة تنقشع عن بصرها؟ ومع ذلك فما زال أمامها متسع من الوقت » وثار فضولى وتنبهت غريزة التطلع فى عندما أدخلنى الخادم فى غرفة الاستقبال التى كنت أعرفها من قبل كل المعرفة إذ كثر ما جئت وقتذاك لزيارة ممرضتى الفضلتين كلما سمح لى الوقت بين عيادة وأخرى . وقوة الملاحظة التى يمتاز بها الطبيب

العاديين ، وكثيراً من الأحيان متوحشين تظن الفتاة الخيالية أنها ستزوج فارساً كريماً وإذا بفارسها هذا عاى خشن كما يظهر لى هذا الشاب . ما أعظم الصدمة عندما تنكشف الحقيقة للوز الصغيرة إلا إذا كنت قد أخطأت فى حقيقة نفسها وكانت فى الحياة العامة غيرها فى المستشفى كما يدل عليه هذا الاختيار أكبر دلالة

ولكن لا افان نظرتى كرئيس عيادة لم تخدعنى وقد ألفت إحدى الصدف التى تحدث يومياً للطبيب بالدليل القاطع . وبهذه المناسبة ما هى الصدفة ؟ هى وقوع ظروف وحوادث لم يكن فى الامكان التنبؤ بمحدثها . وبالفعل أى طبيب يمكنه أن يتنبأ بأن المريض الفلانى الذى لم يكن له به سابق معرفة سيستدعيه ، وأن دعوته هذه ستكون سبباً فى وقوع حوادث غير منتظرة ، إذ لم تمض فترة كبيرة على عيادتى لضحية غازات فردان حتى كنت قد استلمت برقية من السيدة لور تخبرنى فيها بمزيد السرور بخطبة الشابين . ثم تلا البرقية كتاب يطفح غبطة وجوراً تبدي لى فيه أسفها لأن الزواج الذى سيتم قريباً جداً بناء على إلحاح ابنتها كما قالت لم يحدد له يوم بلاءمنى ، وإلا كانت رجعتى فى أن أكون أحد الشهود ، وإنها تعلم أن كثرة أشغالي لا تتحمل بضعة أيام أنغيها عن مرضاى وعن مستشفاى . وكانت تسكن على بعد عشر ساعات بالسكة الحديدية من باريس . وهاكم المصادفة التى كنت أكلكم عنها دعانى بعد بضعة أيام زميلان لى من تلك الجهة للتشاور فى قصر قريب من مدينتها ، فحدثت أقرب يوم سبب للمشاورة المطلوبة رغبة منى فى زيارة ممرضتى السابقتين فى يوم الأحد لاستطيع العودة إلى أداء

على السرير . ولما ملت عليها لكي أثبت رأسها على الوسادة قالت لي هامة : « أخرج أمي . أخرجها بأي شكل » وبدأ عليها الانزعاج والرعب حتى أنني أطعمتها طبقاً للمبدأ القديم الذي يقرر عدم التصادم مع المصبيين . فالتفت إلي والدتها قائلاً : « أكرر لك يا سيدتي أن لا خوف عليها . سترتاح الآنسة قليلاً بينما أوجه إليها بعض الأسئلة وأظن أنني أستطيع أن أؤكد لك أنني سأعود إليك بها بعد نصف ساعة وهي على أحسن حال مستعدة لتناول الطعام كأن لم يكن هذا الحادث الذي أثارته حرارة الجو ولا شك — فقد كنا في شهر يونيو — فقالت السيدة لور :

— أنا ذاهبة إذن لأصدر بعض الأوامر ... ومع ذلك فهذه هوذا الدم قد أخذ يتصاعد إلى وجنتيها . ثم قبلتها وقالت وهي تدلها : أجبني بدقة على أسئلة الطبيب أينما البنت الخبيثة ... ثم فكرى فيما يصيب لوسيان المسكين لورآك في الحال التي كنت عليها ! وأنت يا سيدى الطبيب أرجو المَعذرة من مثل هذه المقابلة؛ وإذا احتجت إلى فدق الجرس فأعود سريعاً وما كادت تغلق الباب حتى قامت لور وقالت لي : « لا داعي لتوجيه الأسئلة إلى ياسيدى الطبيب فليس بي من مرض وإنما صعقت عند ما رأيتك تنظر إلي تلك الصورة التي وضعتها أمي هناك خصيصاً لك لكي تهيننى . إنها صورة خطيبي الحقيقي لا الذى جاءك في باريس ... » وعند ما رأت عجبى قالت : « آه . لا يمكنك أن تفهم ... إننى أنا الذى أردت أن يطلب لوسيان من أحد أصدقائه — وهو زميل أنقذ لوسيان حياته في فردان فأصبح يخلص له إخلاصاً أخوياً — أن يلعب هذا الدور فيذهب

شديدة جداً عندي ؛ ففي بضع الدقائق التي مكثت فيها وحدى لاحظت وجود مسند تصوير عليه صورة بالفحم لم أكن أعرفها . والصورة جانبية لغتي تبدو عليه بشكل غريب سيء النباهة وعثرة النفس ؛ وكنت أعرف أن للوز بعض اللام بأصول الرسم ، وقد دلتى توقيعها تحت الصورة على أنها من صنعها فوفقت مشدوهاً من إتقانها ودقتها مع أن البرهان كان أمامى . ثم قطع على تأملى صوت السيدة لور إذ دخلت وكانت ابنتها بالطبع معها وقالت لي هذه الكلمات التي لم أفقه معناها والذي فهمته بعد قليل وربما كانت الاستفهام عنها ذاعوا قب وخيمة « ألا تشبه تماماً ؟ مع أنها لم تصنعها إلا في ثلاث جلسات ؟ ... ولكن ما بك يا ابنتى ! ... »

وكانت لور قد وقعت فجأة على أحد المقاعد وهي متهالكة وقد غاض الدم من وجهها وكأنها فقدت وعيها بينما كانت أمها تواصل حديثها دون أن تترك لي الوقت لكي أجبها على سؤالها عن التشابه إذ كان يفهم منه أنني أعرف النموذج الذى نقلت عنه هذه الصورة

— لقد شاهدت بنفسك مقدار ضعف أعصابها والدوار يعترها باستمرار ... أرجوك أن تفحص عن دائماً كما طلبت منك . ألا تتفضل بالذهاب إلى مخدعها ؟ أتستطيعين الشئ يا ابنتى ؟ فأجبته وأنا أأسعد ابنتها على الوقوف . طبعاً يا سيدتى ، استندى على يا آنسة ، وأنت يا سيدتى هدئي روعك فلا خوف عليها

وقد دلتى تقبض يد لور على معصمى وارتعاش ذراعها على ما بها من اضطراب أخذ يهدأ شيئاً فشيئاً منذ خرجنا من القاعة . ثم دخلنا مخدعها فاقمتها بالرقاد

كانت قد انتهت من البكاء فخدجتني ببصرها وقالت لي بعزم أشعرنى بأنها ان تنثنى عما قررت
— ليس الوقت وقت مناقشة وقد أوشكت أرى أن تعود نخبرها في الحال إذا كنت اتبوت إخبارها فتكون قد رحمتني لأن هذا الشك يقتلني ، ولكن نيقن من أننى عندما أخرج من هذه الغرفة سأذهب لأنتحر ولك الخيار الآن فيما تقرر ...

وجالست إلى منضدة الزينة وأخذت تصف شعرها بهدوء أمام المرأة كأن الحديث الذي تبادلناه كان حديثاً عادياً . وكنت أرى وجهها الجميل وقد هدأ الآن كما يحدث في الأزمات الداخلية إذ تتركز التورة في قرار ينقذ النفس منها فترتاح إليه مهما يكن الشر المنطوى عليه . ماذا يجب عليّ إذاً أن أصنع ؟ وما هو واجبي ؟ وهل تهديدها بالانتحار صادق ؟ ولكن وجه الفتاة الثابت أزال كل أثر للشك من مخيلتي ، فإذا تكلمت انتحرت ، ولكن لو سكت عن واجبي لكنت شريكاً في هذا الخداع ولكي يقبل خطيب هذه الفتاة التمسمة الموافقة على إحلال آخر محله في مسألة الشهادة يجب أن يكون إما ضعيف الإرادة إذا كانت الفكرة فكرتها أو سافلاً إذا كان هو الذي فكر في هذا الخداع . المقوت . وثمة إغواؤها وحلما منه ! هل يجب أن أشارك في هذه المخازي يكذبني على أمها التي ستكون هنا بعد بضع دقائق . هذه الأم ذات النفس المالية والاخلاص وكرم الأخلاق ! هذه الخلال التي كثيراً ما برهنت عليها في المستشفى ؟ هاهي ذى تقرب فعلاً . إذ انتهت حواسي كما يحدث للإنسان في الأحوال المصيبة الشديدة ، فسمعت وقع خطواتها

إليك بدله متسمياً باسمه للحصول على الشهادة التي ما كنت تقبل أن تعطيه له هو الذي يعرف نفسه ممرضاً لذات الصدر فيمتنع زواجنا وكان لا بد لي أن أتزوج . ثم عادت فقالت وهي تشد على معصمي بقسوة وحشية هذه المرة : « لا بد لي . » ثم بصوت متحشرح : « إنني حليلته وأنا حامل » ثم وضعت كفها على وجهها وأخذت تلتحف وتنشج وهي تواصل اعترافها المحزن :

— عرفت من أمي في الساعة السادسة أنك جئت إلى هنا وأنت ستأني هذا المساء لتناول العشاء . لم يكن ثمة مناص من وقوع المأساة وانكشاف الحقيقة فطرده لوسيان من بيتنا عندما تقول : « ولكن ليس هذا الذي جاءني في باريس ... » فإذا كان يحدث لي أنا الملهة بحبه ... خرجت معتذرة بمذرم ما وجريت إلى الفندق الذي نزلت فيه والذي عرفت عنوانه من أمي ... ولكنك لم تكن هناك فعدت إلي هنا ولكن بعد أن كانت قد وضعت الصورة في الغرفة . ولحسن الحظ أنها كانت طلبت منك أن تبذر قليلاً عن الموعد لأن صحتي أهمتها . وكانت كثرة الاضطرابات النفسية قد أتمبنتني فوطنت النفس على أن أصارحك وأن تعرف كل شيء . إذ ماذا كان يحدث لو أجبت على سؤال والدتي : « تشبهه ؟ » ولكنني لا أعرف الأصل ... » أكرر لك القول هناك كانت المساءة بل الكارثة . ولكنني لحسن الحظ شعرت بالألم قبل أن تتكلم ... والآن هل ستتكلم ؟ .. فقلت لها وقد تملكني الفرع من هول ما سمعت « ولكن واجبي يا آنسة ! .. إنك تطلبين مني شهادة زور وشهادة زور تتماق بمهنتي » .

في الغرفة المجاورة كما سمعته لويز أيضاً . فالتفتت وأتجهت نحو الباب ونظرت إلى صرة أخرى وهي ملازمة الصمت ، فتبين لي أنها ستقف هناك مستعدة للخروج إذا دلتها كلمتي الأولى على أنني لا أوافقها . فهل كانت تخفي سلاحاً أو قارورة سم أم كانت تفكر في إلقاء نفسها من نافذة غرفة مجاورة ؟ لم يبق ثمة مجال للتردد بعد أن تبين أن وقوع المصيبة — التي لا يمكن تلافيها لو وقعت — متعلق بي . قال الكلام معناه قتل هذه الطفلة المسكينة التي راحت إلى بسرها المشؤوم ووضعت مصيرها بين يدي . ونجاة اتخذت قراراً كما يحدث كثيراً لأحد الجراحين أثناء إحدى العمليات الصعبة إذ تطرأ له فكرة فيتخذ قراراً حاسماً ، قلت لنفسى : « ماذا تخشى الأم أن يحتارز ابنها مصدور فتحمل منه ؟ إنها لم تستطع منع هذه النكبة فما الفائدة من إخبارها إلا وقوعها في نكبة أعظم ! إذن فواجبي كطبيب يعرف ما عرفته وما يمكن حصوله بل ما لا بد حاصل — هو السكوت

وبينما والدتها تدخل الخدع فاجأها قبل أن توجه إلى أى سؤال بقولى : « اطمئنى ياسيدتى . ليس بالآيسة شئ سوى بعض الإعياء وهو طبعى فى الأحوال الراهنة . فهناك التمسب فى إعداد ممدات الزواج . وليس لدى ما أصفه لها بل أنصحها فقط ألا ترهق نفسها »

لم أكن مزهواً طبعاً وأنا أنطق كلمتي هذه التي جعلتني أس هذا التواطؤ الذي استأزت منه نفسى فى مبدأ الأمر . وبدل أن تلتطف نظرات الفتاة التي كانت تعبر عن الشكر من حديثي أهاجتنى كأنها كانت سببة موجهة إلى . وبعد دخول والدتها وسكوتى عدنا إلى غرفة الاستقبال الصغيرة حيث كان يجلس

والد لويز وخطيبها الذي عرفته من مشابهته للرسم . فلم يظهر على الأندهاش عند ما تقدم لمصاحفى وهو مضطرب مما يدل على الخجل الذي كان يساوره والذي كان يجب أن أقدره له ، ولكنى لم أرى موقفه إلا دليلاً على الرياء والخداع . إن هذا العشاء الذي جمع الأسرة وبعض الأصدقاء كان طويلاً ومؤلماً بالنسبة لى ، فإن صرح لويز الذي كنت أظنه مصطنعاً كان يثير اشترازى كلما قهقهت ضاحكة ، وكان السرور البادى على باقى الأضياف يؤلمنى أشد الألم ، وكان شعورى أمام هؤلاء الناس السليعى النية بأننى حامى الرياء يضاعف وخز ضميرى . ولم أخلص مما انتابنى إلا بعد انتهاء العشاء إذ بادرت بالهرب مدعياً التعب بسبب السفر وواعدا بالعودة فى اليوم التالى للفقور بينما صممت على مغادرة المدينة فى نفس الليلة بقطار الساعة الحادية عشرة على أن أخلص من وعدى تليفونيا عند وصولى إلى الفندق بدعوى ورود برقية تدعونى إلى العودة مريماً إلى باريس . وهذه كذبة أخرى ولكنكم تدركون طبعاً أننى اغتفرتها لنفسى . أما الكذبة الأولى فكى كانت تؤلمنى وأنا عائد مضطرب الخاطر مثقل بالهموم

قلت لكم عندما بدأت هذه القصة إنها أثارت ألى وحزنى إلى أقصى حد ، وإنها كانت فى نفس الوقت عزائى فى مهنتى . وهما كم تفسير هذا التناقض فقد عدت إلى باريس بعد تلك الليلة المشؤومة مثقلاً بالهم الذي اشتدت وطأته عندما وصلتني الدعوة الرسمية إلى هذا الزواج الذي لعبت فيه بواسطة سكوتى دوراً يتنافى مع نزاهتى وصراحتى . فكى ندمت وقتئذ على سكوتى بل بلغت درجة الندم أننى برغم أبسط قواعد الأدب لم أرسل رداً ولو برقية على هذه الدعوة . تصوروا مقدار تأثيرى بمد يومين

وأن تراه كما هو على حقيقته، فكم أنبه ضميره وعذبه لأنه أرسل صديقه إليك بدبلا منه . أكررك القول بأنني أنا التي أردت ذلك، وإني كنت أحبه فوق الطاقة كثيراً ما فكرت في أنه ينبعث من كل فرد منا إشعاع ينتقل منه إلى الآخرين بواسطة الإشارة أو النظر أو الحيا وأن هذا الإشعاع يوجد بين الأشخاص إما تنافراً قوياً وإما توافقاً لا يقاوم . وإلا فكيف نفس الانقلاب الذي أحدثه هذا السعي الجديد الذي كان لي من الأسباب ما يجعلني أعتقد أنه ينطوي على مكيدة جديدة مستترة بعد أن عرفت عن لوز أنها أهل الحبك مكرها ، ولا أظن أن أي كلمة مهما قست لا تصح أن تكون نمطاً للطريقة التي استعملتها هي وحبيبها للحصول على شهادة الصلاحية للزواج الموزنة . ألم تنم هي بذاتها نفسها بأنها مثلت أمي دور الحبلى ودور المنتحرة اللذين أختاني في هذا الغش الذي مازال ضميري وبخزني بسببه كل يوم ، ولكنني عندما كنت أشاهدها وأستمع إلى كلامها وأرى تأثيرها وحماستها تتمحى كل تلك الأسباب فجأة وتمود لوز في نظري تلك الممرضة الصغيرة التي كانت في المستشفى والتي كنت أقدر فيها إخلاصها على صغر سنها . ولعل شيئاً من المطف الذي امتزج بتقديرى لها هو الذي جعل إقصاءها لي بفظتها الأولى أشد وقماً وأكثر إيلاماً كما جعلني أشعر بالعزاء لدفاعها عن براءتها . وعلى كل حال فقد رأيتني أجيبها :

— ليس ثمة ما يدعو إلى طلب الصفيح يا سيده ..

فقاطعتني قائلة :

— كنت في المستشفى تدعوني لوز

فقلت لها إنني أقدرك الآن يا لوز كما كنت أقدرك هناك . لقد جزت دقيقة عصيبة جداً عندما سألتني أمك عن الصورة ولكن يجب

من الحفلة التي كنت أعلم ما انطوت عليه من الغش عندما رأيت لوز نفسها تدخل مكتب العبادة وتجلس على نفس المقعد الذي جلست عليه أمها منذ ستة أسابيع . نعم رأيت لوز نفسها مشرقة الوجه تهتز طرباً فقالت لي عندما رأت سمتي ووجوي — فهل كنت أستطيع أن أرى في هذه الزيارة إلا منتهى الفحشة؟ — نعم ! هذي أنا يا سيدي الطبيب . أنا التي كنت أرغب في طلب غفرانك . لقد أدركت تماماً مقدار ألمك أثناء ذلك المشاء فأقسمت أمام نفسي لأننيك لأشرح لك الأمر في باريس . وهذا ما دعاني للحضور . ثم إنني لا أحتمل أن تظن في زوجي أنه لم يرع الشرف وجعل مني خليلته قبل الزواج . إن هذا عين الخطأ لأنه ما أنفك يحترم تلك التي ستحمل اسمه . أما هناك فقد كذبت عليك ، وإنني أنوّل إليك أن تسامحنى من أجل هذه الكذبة لأنه كان يجب علي أن أمنمك بكل طريقة من إخبار والدي بارسال بديل من لوسيان بعد أن عانيت ما عانيت في إقناعه ، لأنني أنا التي فكرت في هذه الطريقة للحصول على الشهادة التي فرضها عليه . فلما جئت إلى هناك ، وجعلت تنظر إلى الصورة ودخلت أنا ووالدتي جننت فزعاً فوصمت نفسي أمامك بالعار ونطقت بكلمة الاتجار لأرغمك على السكوت . هل كنت أنتحر لو تكلمت ؟ لا أظن إلا أنني أحب لوسيان إلى أقصى حد ، بل كنت أهرب من البيت وأرغمي بين ذراعيه طالبة منه أن يأخذني ضاربة صفحاً عن الزواج الدني . ولكنني متدبنة ففعلت أخيراً ما فعلت . لك أن تدبني كما تشاء ، ولكن لوسيان يجب أن يسترد اعتباره لديك لأنني عندما رويت له ذلك الفصل الروع أراد أن يكتب لك ، ولكنني رجوته في أن يدع لي أنا الاعتراف لك بالحقيقة . إنني أشعر بالحاجة إلى أن تحترمه

في القوة والصحة ، وقد ولدوا ولهم بمد الزواج بعشرة أشهر وهذا دليل آخر على أنها اهتمت نفسها . نرون من هذه القصة أن فائدة شهادة الصلاحية للزواج ليست أكيدة كما يبدو لأول وهلة ، ولو أنها كانت مفروضة فملاملا وجدت هذه الأسرة السعيدة . هذا ولكم أن تستخلصوا من هذه المأساة التي اشتركت فيها النتيجة التي تحاولكم ، أما أما فقد خرجت منها بهذه الحقيقة المؤثرة برغم بساطتها ، وهي أن المرأة التي تحب حبا حقيقيا لا تنزيها عن عزمها صموبة ما ؛ فأظهر النساء تقدم على إثبات أحط الأمور أو أنبلها لتحقيق غرضها ، وإنه لمن عجائب الطبيعة وجود قلب كقلب لوز الذي يصنع العجائب وأمامكم هذا الزواج وهذا الشفاء أكبر دليلين على ذلك .

عبد الله الرباشي

أن تطلي الصفح منها . فقالت :

— لا وجه لذلك إذا أتقنت زوجي لأنها كانت تريد ألا أتزوج مريضا وكنت أما موقنة من أنني سأخلصه . نعم إنه مريض ولكن بقدر يسير وما دعاني إلى الالتجاء إلى الطبيب الذي طالما رأيته يصنع المعجائب عند ما كنت ملحقة بخدمته إلا لكي يمتني زوجي العزيز ويشفيه لي

لقد قبلت وبمساعديها القيمة أمكنني أن أبري هذا العليل الذي ما كنت أوافق على زواجه ألبته لو كان هو أتى بنفسه لأخص عن دائه كما طلبت منه والده لوز المدلهة . حقا لم يمس الرض رثته إلا مسا ريفقا ، وهو الآن وبعد مضي ست سنوات وبفضل عنايتها هي على الأخص قد أصبح بمنجاة من كل خطر . وقد أنجبا ثلاثة أولاد هم مضرب النشل في

مؤلفات

الأستاذ محمد كامل ججاج

٤٠ بلاغة العرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسي والانكليزي والألماني والابطالي مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات في الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحايوان وبه روايتان تمثيلتان)

١٨ نباتات الزينة العشبية (محلي باحدى وتسمين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلي بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثاني في جيم المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

عبد المظفي المسيري

يقدم كتابه الثاني

الظامئون

به القصص الآتية :

وكدى . بيني وبين نفسي . بيت الحظ . أول غرام . الصعاليك

ترجم له القصص العظمى

محمود تيمور بك

لوحات فنية للاستاذين : بدر أمين وشفيق رزق الله

يطلب الكتاب من مؤلفه بعهوة وميسر بدمهور ومن مكتبة النهضة بمصر ومكتبة فيكتوريا بالاسكندرية الثمن خمسة قروش صاغ